المقتطف

الجزء الرابع من المجلد السابع بعد المائة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٥ — ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٦٤

طبقة من نور
وأخرى من ظلام في العصور الوسطى

كان الفرق بين الآراء التي تجول في عقول الأوساط من الناس، وبين الذين خصوا باستيعاب أرق ضروب المعرفة الدائمة في العصور الوسطى، كبيراً شاسعاً. على أن مثل هذا الفرق قد وجد دائماً بين الزمرتين، وهو في عصرنا هذا، بالرغم من نظام المدارس والتدريس، لا يزال واسعاً عميقاً، كما كان في تلك العصور. غير أن بعض الظروف قد جعلت ذلك الفرق في العصور الوسطى، أوسع بعض الشيء مما هو الآن. ذلك بأن غالبية الناس إذ ذاك كانوا الى الخشونة، كسترقهم الصناعات البدوية أو الفلاحة، فلم يزاولوا وديانهم الأصلية التي نشأوا فيها. اللهم الا إذا دعتهم الحاجة الى الخروج لمغزاة يزجهم في غمرتها سيد الأقطاع الذي يملك رقابهم. كانوا يجهلون القراءة. ولو أنهم عرفوها إذن لما وجدوا كتباً ولا مخطوطات يكفون عليها، فظلوا من حيث العلم بأحوال الدنيا الخارجة عن ديارهم الضيقة، واقفين عند ما يتلقفون من أقوال المهاجرين وعابري السبيل والتجار. وفي الحق ان صلتهم بالمعرفة كانت مقصورة على قسيس القرية. وكان قساوسة القرى أقل رجال « الأكليروس » علماً وأعجزهم عن التعليم. كانوا في شغل شاغل وفي فقر مدقع، حتى ليتعذر على أحدهم الحصول على مخطوط يكب عليه. وكانوا محتقرين في نظر الذين هم أعلى منهم مرتبة في الكنيسة، ومن الدينارين، على السواء.

إن اتصال الفلاحين وعمال المصانع في العصر الحاضر بالعالم الخارج عنهم، ووقوفهم على

أخبار الدنيا والآراء التي تذيع فيهم عن طريق الصحف والمجلات والصور المتحركة ، دع عنك تعليم المدارس ، لم يتهيأ مثله للناس منذ ستة قرون فرضَ من الزمان . أضف الى ذلك أن طبقة المتعلمين كانت نسبتها بالقياس على المجموع أقل منها الآن . فاننا بارغم مما نقرأ من أن آلاف الطلاب كانوا في ذلك العصر يغشون جامعة باريس أو جامعة بولونيا ، فإن عدد الجامعات الكبرى ذات الأثر الثقافي، حتى حدود القرن الرابع عشر ، لم يتجاوز اثنتي عشرة جامعة في كل أوربا ، إن لم يكن أقل . وكانت جميعها ، على التقريب ، واقعة تحت سلطان رجال الدين . وهم طائفة انحصر فيهم كل ما نسميه اليوم وظائف السياسة والشرع والتعليم ، ومعنى هذا أنهم كانوا منفصلين عن بقية أفراد الجمعية وطبقاتها ، فلا يختلطون بغيرهم إلا قليلاً ، فضلاً عن اعتقادهم القائم على فكرة الرعاية الكنسية التي أوحت اليهم بأن العلم عالمهم وحدهم وصناعتهم المحتكرة ، وأن تدخل عامة الناس فيه أمرٌ لا يخلو من خطر ينبغي أن يتقى بصرفهم عنه وإبعادهم عن سبيله . يأتي فوق ذلك حقيقة أن الكتب التي ظنَّ أن بها إثارة من العلم المدرسي والمدوَّنات والمراجع ، كانت جميعاً مكتوبة باللسان اللاتيني ، وكان مجهولاً من العامة حتى في ايطاليا نفسها . وكذلك الانجيل ، وكان من دعائم العلم في كل العصور الوسطى ، كان مكتوباً باللغة اللاتينية كما عرفها القديس « جيروم » . أما ترجمته الى اللغة المتداولة فكانت مقدمة لحركة الاصلاح الديني التي قام بها لوثر ، وكان بقاؤه في اللاتينية وحدها من العوائق التي صدت مقدمي الاصلاح الديني ، من أمثال « ويكليف » و « هس » عن بلوغ أهدافهم في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر . ولم يكن ليصل الى العامة من صور التبشير النصراني التي يمكن أن تسعها عقولهم، قبل ظهور القساوسة المستجدين من الدومينيكيين والفرنسسكانيين في أوائل القرن الثالث عشر، إلاّ إشارات وتف لا غناء فيها. وإنما أكثر ما يتصل بهؤلاء القساوسة من الشهرة ، فإنما يرجع الى نشاطهم التي جابت أنحاء أوربا ، ورغبتهم في اقتسام علمهم مع الناس .

كانت الطبقات العليا ، بطبيعة الحال ، غير منقطعة كل الانقطاع عن خزائن الحكمة الدائمة . ففي خلال العهد الأخير من العصور الوسطى ، كان أسياد الاقطاعات يقرأون ويكتبون ، جرياً على عادة أتبعت ، كما أنشئت لهوم أقاصيص وأغنيات وحكايات لتسلية عن سياحات ومخاطرات ، وهي من الأشياء التي تؤلف جزءاً عظيماً مما تفخر به الآداب الاوربية الاولى . كذلك كان نواب المدن وكبار رجالها متعلمين تعلماً لا بأس به . وفي الحقيقة ان العثور على طبقة متعلمة تعليماً ثقافياً، قد اقتصر في الغالب على كبار رجال الأسر التجارية ورجال البلديات والموظفين الذين كان يحتاج اليهم في معالجة مشاكل التجارة والحياة

التجارية . فنى دانتي الفلورنسي ، وهو ابن مسجل عقود ، إنما هو المثل العالي لتلك الضرب من التعليم الذي ذاع في المدن ، وبخاصة مدن شمالي إيطاليا العامرة في القرن الثالث عشر . ولقد كان في ألمانيا وفي الفلاندر طبقة مثل هذه تمثل أرقى ما وصل اليه التثقيف في المدن الكبرى .

من هذه الطبقات خرج أعاظم الذين تحمسوا لآداب العالم القديم واحتضنوها وعملوا على تفهمها . أولئك كانوا أوائل النشوريين[1] في عصر النهضة . وبنشوء هذه الطبقة القارئة ، نشأت آداب واسعة تناولت العلوم المبسطة ، ونوع آخر من الأدب جمع بين التسلية والتثقيف . وكان من الطبيعي أن تتجه العقول الى أنواع الثقافات الأدبية التي فيها شيء من الروعة أو الغرابة .

من أمثال الكتب التي ذاعت في ذلك العصر كتاب — Romaunt of the Rose — الذي ترجم الى كثير من اللغات وترجمه « شوسر » الى الانجليزية . وكذلك كتاب — Image of the World وكتاب Romance of Sidrach وكتاب Treasure الذي وضعه برونيتو لاتيني أستاذ دانتي وكتاب — Properties of Things — الذي وضعه بارتولميو الانجليزي وكثير غيرها من قلدوها . وهؤلاء لم يكونوا في عصرهم أقرب الى مراقي الثقافة العليا ، علمية وأدبية ، ممن كثير ممن يكبون على صحف « العلم المبسط » التي تنشر في عصرنا هذا . إن هذه ليست إلا نفايات إذا قيست بالموسوعات الثقافية التي وضعها ألبرت الكبير أو القديس توماس الاكويني .

إذا رجعنا إلى عقائد الرجل العادي في حقيقة العالم ، فإننا نجد أن آراءه من حيث تأمله في حقيقة البيئة التي وضعه الله فيها ليقضي حياته الفانية ، كانت خليطاً من مشاهدات ، إن دلت على فطنة ورجاحة عقل ، فإنها في مجموعها قد علقت بتلك الأشياء التي وقعت تحت حسه وفي دائرة حياته المحدودة ، وأثرت في حياته اليومية وطبيعة عمله ؛ وقصص خيالية وخرافات كونها فيما تخيل من أمور تبعد عن عصره أو عن عقله ، سواء أفي الزمن أم في المكان ؛ وعقيدة مستمدة من التخيل في حقيقة الأشياء التي تبعد عن مجال تجاربه ويعجز عن تعليلها ، وكانت حرفية الانجيل ، مفسرة على ما يرضي أهواء الأحبار السائدة ، هي المرجع الذي يستمد منه مهيئات تلك العقيدة .

خلق الله العالم ، كما ثبت في مخيلة ذلك الرجل العادي ، في ستة أيام ، جرياً على التقليد العبراني القديم ، فخرج كاملاً بكل تفاصيله ، وثبت كما خلق فلم يقع عليه أي تغاير أو تطور .

---

(١) Humanists

وان التغير الذي نلحظه في حياتنا هذه انما يقتصر على حياة الانسان وعلى أعماله . خيل اليه أن الارض صهنٌ عظيم ، يحيط به من جميع الجهات لجٌ من الماء . وبين فوقها امتدت القبة السماوية ، التي سبحت فيها الشمس والقمر والسيارات ، وفي جنباتها القسيحة استقرّ ملائكة يحملون النجوم الثوابت ، كأنها المصابيح .

أما حركات السيارات فكان علمه بها أرقى من علم الانسان العادي في زماننا هذا ، ذلك بأنه عاش في العراء ، فاذا غربت الشمس ، عزّ عليه أن يجد ما يستضيء به ، فشغل نفسه بالتطلع الى السماء ، حتى استطاع أن يقف على مجرى تلك الكواكب السيارة ، وطبيعة حركتها ، ونشأت فيه غريزة الفلاح التي حملته على أن يدرس علاقة حركاتها تلك بحالات الطقس والرياح . فهيأ له ما علم من مبادئ التنجيم ، وهي مبادئ انحدرت اليه من أبعد الازمان ، وكانت قد نشأت في تلك البلاد التي يدعوها « بلاد الكفّار » — ويقصد بهم العرب — فاعتمد عليها واتخذها ، كما اتخذها غيره من أهل القرون الاولى ، هادياً في العمل وموجهاً في الزراعة ووسيلة للشفاء ، ومستقرأ للمستقبل . أما المجازات المشرقية التي وردت في كتب العهد القديم ، فقد فهمها بحرفيتها ، وربما كان قد عطف على ذلك الاعتقاد القديم الذي قال :

ليست السماء كرة ، بل خيمة أو مظلة « انه هو ... الذي مد السماوات حجاباً ، وبسطها خيمة تعاش فيها » . تقول الكتب المقدسة إن لها قبة . وليس للكرة قبة . وكذلك كتب : علت الشمس عن الارض عند ما هبط لوط أرض صوغر (١) Zoar . الارض منبسطة ، والشمس لا تمر من تحتها خلال الليل ، بل تمر بالاجزاء الشمالية ، كما لو كان يحجبها جدار . والشمس تغرب ومن ثم تسرع الى المكان الذي منه تشرق » .

***

اتخذ الراهب « قوزماس » من هذه التعبيرات أداةً ، وأكبّ في القرن السادس على تأليف كتاب ذاع صيته وانتشر بين الناس على اختلاف طبقاتهم حتى القرن الثاني عشر ، تصوّر الدنيا في هيئة خيمة عظيمة مستطيلة الشكل ، محوطة بالماء ، ومنها يتساقط المطر على الارض .

غير أن كثيراً من الذين وصلت الى أيديهم كتب العلوم المبسّطة في القرنين الثاني عشر

(١) واذ أشرقت الشمس على الارض دخل لوط الى صوغر . فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريت وناراً من عند الرب من السماء . وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الارض . ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح . تكوين : ١٩ : ٢٣ الى ٢٦ .

والثالث عشر ، كان علمهم أقوم من علم هــذا الراهب والذين أخــذوا عنه . فقد بُــرْهِن بسهولة على أن الارض كروية ، وان من حولها تدور الافلاك والسيارات .

جاء في كُتَيِّب من مخلفات القرن العاشر :

في اليوم الثاني خلق الله السماء وسميت القبة ، وهي مرئية بالعين ، هيولية القوام . ومع هذا فقد يتفق ان لا نراها لعظم ارتفاعها وتراكم السحاب وضعف أبصارنا . تقوم السماء في صدورها الدنيا برمتها وهي لا تنفك تدور من حولنا ، بأسرع مما تدور أية من عجلات الطواحين ، وهي من تحت الارض كما هي من فوقها ، على بعد واحد . انها مستديرة من كل أطرافها ، كاملة الجزء ، تامة الخلق مرصعة بالنجوم . وفي الحق ان الشمس تمشي بأمر الله بين السماء والارض تعلو نهاراً وتهبط ليلا . وهي دائمة الحركة من حول الارض ، وبذلك تضيء الجزء الاسفل من الارض عند ما يكون ليل في جزئها الاعلى . والشمس عظيمة الحجم فائقة القدر ، وانها على ما تقول الكتب ، بعرض الارض واتساعها ، ولكنها تظهر صغيرة لبعدها عن أبصارنا . والاشياء كلما بعدت عنا ، ظهرت أصغر حجماً مما هي . والقمر والنجوم تستمد ضوءها من الشمس . والشمس في السماء نظير عظمة المسيح في الارض ، فانه شمس الحق والتقوى . أما الكواكب والنجوم فهي في السماء ، نظير المؤمنين بالله في الارض .

السماوات من فوق الارض ، وتبعد عنها بعداً شاسعاً عظيماً ، حتى أن حجراً كبيراً اذا هبط من السماء ، فانه لا يصل الى الارض في أقل من مئة سنة . ولا شك في أن أكثر المتعلمين كانوا على إلمام بالمبادئ الاولية التي قام عليها الفلك اليوناني ، وهو علم اقتصر الاشتغال به على فئة من المنقطعين للدرس ، ولو أنه كان في ذلك العصر مطوقاً بالاساطير مندفناً في الخرافات .

في سفر « صدراك » أن الشهب المنقضة على الارض ، هي مدارج الرياح ، أو هي الرطوبات التي تنفثها الارض فتصعد من صدورها حتى تصل طبقات الهواء العليا ، أو ربما تكون أقباساً من النار يرمي بها الملائكة الطيبون الملائكة المغضوب عليهم ، إذا أرادوا أن يدخلوا خلسة ملكوت السماء .

إن الرجل العادي لم يكن ليعرف شيئاً من الجغرافيا ، اللهمَّ إلاّ ما يتلقفه من أفواه المسافرين ، وكان من الغرارة بحيث يقبل أي شيء يروى له عن البلاد البعيدة عن محيطه ، وما تآهل به من أقوام غرباء ، شأنه في ذلك شأن أمثاله في عصرنا هذا . ولا ينبغي أن يغرب عن فهمنا أن كل الاقاصيص المثيرة التي ذاعت في « العصور الوسطى » انما استمدت أصلاً من كتب القدماء ، من الرومان أمثال بلينيوس ومن اليونان بعد العصر القديم ، وهي أقاصيص نتخذها مثالاً لمعتقدات التي ذاعت في الحضارة القديمة والعصور الوسطى . والحقيقة انها لا تدل على تأخر عقلي أو انحطاط ذهني ، بل تدل على انها أرقى ما وصل

اليه العقل البشري في ذلك العصر ، انهم الا فئة من المتأخرين في العلم .

فهنالك السواتير (١) على شكل الانسان، مقعرو الانوف ، مغطون بالجلد ، بأرجل أشبه شيء بأرجل الماعز . ولقد رأى القديس «انطوني» واحداً منها في الفلاة .... ان هذه الوحوش الغريبة ذوو قدرة على الجري في الفلاة . وقد سمي بعضها «الكلبيات» — Cynocephali (٢) — لان رءوسها كرءوس الكلاب ، ويظهرون في تصرفاتهم أشبه بالبهائم منهم بالانسان . وقد يسمى بعضهم «مستديرات العين» Cyclops (٣) وسموا بذلك لان لكل منهم عيناً واحدة تستقر في وسط الجبهة ، وقد يكون بعضهم بغير رءوس أو أنوف ، وعيونهم في أكتافهم ، ولبعضهم وجوه مسطوحة بغير خياشيم ، والشفاه السفلى قد تمتد وتطول حتى تغطي وجوههم ، اذا ما أحرقتهم الشمس . وفي «اسقوتيا» — Scythia (٤) — أقوام منهم أفانيون (٥) أي عظام الاذان سخافها ، حتى انهم قد ينشرون آذانهم فيغطون بها كل أبدانهم ، وهؤلاء يسمون Panchios (٦)

في أثيوبيا غير هؤلاء خلق كل منهم بقدم واحدة ، غير انها من العظم والضخامة ، بحيث يستطيعون ان يستظلوا بظلها اذا ما استلقوا على ظهورهم ورفعوا أقدامهم الى أعلى ، ليتقوا بها حرارة الشمس ، وهم مع ذلك عداؤون ، في سرعة كلاب الصيد عدواً ، ولذا سماهم الاغارقة Cynopods (٧) أي الكلابية الارجل ، اشارة الى السرعة لا الى الصورة . وهنالك من ينبسط جلد كفوف أرجلهم الى ما وراء أقدامهم ، ولهم ثمانية أصابع في كل قدم ، فيستطيعون بذلك الجولان والتنقل في جنبات صحراء لوبيا » .

* * *

ولم تكن الغرائب المروية عن السوائم والنباتات بأقل مما ذكرنا غرابة :

---

(١) Satyrs : were nature-deities or daemons of mountain forests and streams, of a subordinate or subaltern character, and therefore especially the attendants of Dionysus, like whom they represented the luxuriant vital powers of nature, etc. Class. Dict. 842.

(٢) Cynocephali — Dog's Heads : Class. Dict. 263.

(٣) Cyclops = round-eyed. In Greek Mythology, a race of one-eyed giants, represented in the Homeric cycle of legends as Sicilian shepherds. Cent. Encycl. p. 299.

(٤) Scythia : a name applied to very different countries at different times. Class. Dict. 855.

(٥) افانيون : رجل أذاني وآذن عظيم الاذن طويلها ونعجة أذناء وكبش آذن . القاموس المحيط ٤ : ١٩٥

(٦) Panchios : Panchion (Panshon) Encycl. Dict. p. 365 Vol. V. Panchion : (Perhaps a corrupt. of puncheon). An earthenware vessel wider at the top than at the bottoms, used for holding milk, and other purposes. Encycl. Dict. p. 369 Vol. V.

وفي الاسم اشارة الى الصفة الخرافية التي تخيلها أهل تلك الازمان

(٧) Cynopods : Gr. Kuon = dog + pod = foot.

أي الذين أقدامهم مثل أقدام الكلاب

يقول ابن سينا ان الدب تلد قطعة من اللحم ناقصة التكوين كريهة الصورة ، فتلحس الام تلك الجزئة وتصور الاعضاء باللحس ... فان الدب يكون قطعة من اللحم لا تزيد عن الفأر حجماً ، وليس له عينان أو أذنان ، فتلحس الام هذه القطعة من اللحم وتصور منها الدب . ومن أعجب الاشياء التي تروى عن « ثيوفراسطوس » ان لحم الدب اذا أخذ في حالة ما يكون الدب في خدره الشتائي وطبخ ، فلا يبقى منه في القدر غير كمية قليلة من الاخلاط : hurmours

ويروى شيء آخر هو غاية في العجب : ففي بعض بقاع من بلادهم ، يصطاد الاثيوبيون الفيل بالطريقة الاتية : يذهب الى الحرجة فتاتان عذراوان ليس عليهما لباس البتة ، عاريتا الشعر ، تحمل احداهما جرة والاخرى سيفاً ، ثم تأخذان في الغناء منفردتين ، فيطرب الفيل بصوت الفتاة ، ويقبل نحوها ويلحس حلمتيها ، ثم يغشى عليه النوم فيخر صريعاً من نشوة الغناء . فتنتهز احداهما هذه الفرصة وتحز رقبته أو جنبه بالسيف ، وتتلقى الاخرى دمه في الجرة ، وبهذا الدم يصبغ الناس ثيابهم ويلونونها بهذه الطريقة .

التنين أعظم الحيات وكثيراً ما ينزوي فيخرج من كهفه ، ويرتفع في الهواء ، فيتحرك الهواء بحركته ، وكذلك البحر ، فانه يلوث بسمه . وله نزعة وفم صغير ، ويستنشق الهواء من أنابيب صغيرة ، وله أسنان كالمنشار . وله قوة وبطش ، لا في أسنانه وحلقه ، وانما في ذنبه أيضاً ، وله قدرة على القضم والقدح فيقضم بأسنانه ويلدغ بذنبه ، على ان ما فيه من كمية السم أقل مما في بقية الحيات .

وقد يحدث ان يجتمع أربعة أو خمسة منهم ، فيضفرون أذنابهم بعضها ببعض ويحكون وصلتها ، ثم يرفعون رؤوسهم ، ثم يحلقون فيخطون البحار ويجتازون الانهار طلباً لرزق الطيب من اللحم . وبين التنين والفيل عداوة مؤصلة . فاذا تصاولا يصيب الفيل الانهاك قبل النهاية فيعمي بصره ، فاذا سقط على التنين ، قتله بثقل جسمه . والسبب في أن التنين يطلب الفيل ان دم الفيل بارد ، فيرغب فيه التنين ليتبرد به .

يقول القديس « جيروم » إن التنين وحش عطشان شديد التعطش الى الماء ، وقلما يجد من الماء ما يكفي لاطفاء عطشه ، فيفغر فاه نحو الجهة التي يهب منها الهواء ؛ لعله يخفف بذلك شيئاً مما يحس من ألم العطش . وهذا هو السبب في ان التنين اذا رأى السفن تدفعها الرياح ، مضى نحوها طالباً للهواء الذي يملأ أشرعتها به ، وقد يقلب السفن أحياناً بقوة جيشانه ، اذ يصطدم بالاشرعة . فاذا رأى الملاحون التنين يقترب منهم ، وقد يعرفون ذلك بتضخم الامواج التي من حولهم وانتفاخها ، فانهم يسرعون بطي الاشرعة ، وبذلك يسلمون من شره .

وعلى هذا النمط تجري الأقاصيص عن عجائب الأرض ، وكلها تفيض بصور شتى من الخيال والتصوير . فان نمت عن شيء فانما تنم عن سعة في الأفق ، ولو أنها خيالات .

***

فن الأشياء التي رواها « بارتولوميو الانجليزي » عن انجلترا ، أن هذه الجزيرة التي تحيط بها المياه من كل جوانبها ، هي من أعظم جزر البحار ، وان نبلاء طروادة Troy وكبراءها بعد أن خربت مدينتهم وأصبحت انقاضاً ، غادروها ومعهم أسطول بحري عظيم ، ونزلوا

تلك الجزيرة معتصمين بجبالها المشجرة ، وانهم فعلوا ذلك بايعاء من إلاهتهم « فلاّس » Pallas ، فقاتلوا عمالقة الجزيرة الذين عمروها منذ أزمان بعيدة وتغلبوا عليهم : بالحيلة حيناً وبالقوة حيناً آخر ، حتى أمكنهم اخضاع الجزيرة لأمرهم ، وسموها أرض بريطانيا نسبة الى « بروطه » Brute أميرهم الأعلى .

***

فاذا وصف انجلترا في عصره وصفها وصفاً فيه دقة في التعبير . فقال انها ركن الدنيا ، وهو يقصد بذلك ركن أوربا ، وأنها أرض لا تحتاج الى غيرها في حين أن غيرها يحتاج اليها ، وان أهلها محبون للحرية مفلحون للصدق والاستقامة ، ولكن الارض نفسها هي التي بثت فيهم روح الحرية وعلمتهم الصدق بروائها وحسن منظرها وطلاوة اقليمها ، فدتهم البيئة الطبيعية بهذه الصفات وغرستها في فطرتهم . وكذلك اذا تكلم عن فرنسا ، فانه يخلط تاريخها القديم بالأساطير ، فاذا وصفها كما كانت في عصره ، تكلم فيها بشيء من موضوعية الذهن وتوخي الواقع بقدر المستطاع .

فاذا انتقل من ذلك الى الكلام في الهند طغت عليه الأسطورة وتغلب عليه الخيال . فقال ان الهند أغنى بلاد الارض ولكنها مع ذلك أكثرها أعاجيب . ويقول إن بلينيوس قد صدق عند ما قال إن الهند أرض المدهشات . ففيها أعظم الوحوش وأعظم كلاب الصيد . أما أشجارها فقد تعلو وتسمق حتى ان واقفاً تحت شجرة إذا أطلق سهماً من قوسه ، فقد لا يبلغ السهم في رميته قمة الشجرة . وذلك هو السبب في الغنى الذي تنعم به هذه الأرض ، وفي اعتدال الاقليم والهواء وغزارة الماء . وقد تمتد أشجار التين هنالك ، حتى أن كتائب برمتها قد تستظل بواحدة منها وتقيم تحتها ولائم وأعياداً . وهنالك أنواع من القصب تعلو وتتسع حتى أن الفلك الواحد من قصبة منها ، قد يحمل ثلاثة رجال عبر الماء اذا تشبثوا به . ومن أقوام الهند قوم لا تلد نساؤهم غير مرة واحدة ، فاذا وضعن كان أولادهن بيض الرؤوس شيباً منذ الولادة . وفي شرق الهند حيث ينبع « نهر الكنج » قوم من الهنود لا أفواه لهم ، يكتسون بالمواد النباتية ويتغذون بالروائح والمشمومات التي يستنشقونها بخياشيمهم ، فهم لا يأكلون ولا يشربون ، وان الروائح الكريهة تقتلهم .

إسماعيل مظهر